٩٧ — ولان اسور الرب جعل يدي ان تقبض ٩٨ — على السلاح القاهر الذي يخضع العاصي

تاريخ المسكرات

تاريخها عند العرب

خصصنا في الجزء الماضي تاريخ المسكرات عند الامم القديمة الى ان دالت دولة الرومان بتهافت رجالها على السكر والخلاعة . وسنستطرد الكلام في هذا الجزء الى تاريخ المسكرات عند العرب فنقول

من اصنع كتب متن العربية رآها اغنى اللغات باسماء الخمور واوصافها واستدل من ذلك على ان العرب كانوا من اشد الناس معاناة للخمر ومن امهرهم تفننًا في استخراجها وتعليلها فانهم كانوا يستخرجونها من العنب والشعير والذرة والقمح والزبيب والتمر والبسر والكشوث والاثمار على انواعها اي من كل ما يخامر كأنهم كانوا يستخرجون السوائل من هذه المواد وينلونها ويبقونها الى حين الحاجة اليها فاذا حُفِظَت من الاختمار شربوها شرابًا حلوًا والاَّ شربوها خمرًا وكانوا يطيبون الخمر بالاذاريه و يعتقونها و يبرّ دونها و ينلونها حتى يذهب نصفها او ثلثاها . والادلة ناطقة على ذلك كله في كتابات اللغة وهي اثبت تاريخ وادلّ دليل فمنها قولهم الصهباء وتفسيرهم اياها "بالخمر المصورة من العنب الابيض" وقولهم ابنة الكرم وابنة العنب ونحو ذلك مما يدلّ دلالة واضحة على انهم كانوا يصنعونها من العنب ونخله كان كثيرًا في البلاد أتى احتلوها من العراق الى البتراء وهي الآن قفار جرداء

ومنها قولهم الغبيراء وتفسيرهم اياها بخمر الشعير والذرة ومنهُ قول الحريري

وزارعًا ذرةً حتى اذا حصدت صاوت غبيراء يهراها اخو الطرب

وقولهم الكميت وتفسيرهم اياهُ بنبيذ التمر وفي ذلك يقول العباس ابن مرداس

فان تسقَ من اعناب وجٍّ فانما لنا العين تجري من كميت ومن خمر

وقال ابو حنيفة الكميت شراب يتخذ من الذرة والشعير

وقولهم البتع وتفسيرهم اياهُ بنبيذ العسل . وفي الحديث سئل النبي عن البتع فقال كلّ شراب اسكر فهو حرام . وعن ابي موسى الاشعري انهُ خطب فقال خمر المدينة من البسر

والتمر، وخمر اهل فارس من الشعير، وخمر اهل اليمن البنع وهو من العسل، وخمر الحبش السكركة وقولهم السكر وتفسيرهم اياهُ بالشراب المتخذ من التمر والكشوث . قال ابو حنيفة السكر يتخذ من التمر والكشوث يطرحان سافاً سافاً ويصب عليهِ الماء

ونقل صاحب التاج ان عمر فسر الانبذة فقال البنع نبيذ العسل والجعة نبيذ الشعير والمزر من الذرة والسكر من التمر والخمر من العنب

ويسمون الشراب المطيب بالانارية مطيباً او مفوهاً والذي ذهب ثلثاهُ مثلثاً والذي ذهب نصفهُ انصافاً

وكانوا يصفون الخمر بالمروَّقة والصافية ومنهُ قول ابي نواس

تامت بابريقها والليل معتكر فلاح من وجهها في البيت لألاه
وارسلت من فم الابريق صافية كأنما اخذها بالعقل باغته
رقَّت عن الماء حتى ما يلائمها لطافةً وخفى عن شكلها الماه

ويجلبونها من بابل وقرطبل وغيرها من شاسع الاقطار قال ابن سنا الملك

شهدتُ بان الشهد والمسك ريقهُ وما كنت لو لم اختبرهُ لاشهدا
وان السلاف البابليَّة لحظهُ والاَّ سلوا انسانهُ كيف عربدا

وقال المتنبي

سقتني بها القُرطُبليَّ مليحة على كاذب من وعدها ضوء صادق

ويديمونها في دنانها حتى تصفو وتعتق ومن ذلك سميت بالمدام قال ابن المعتز

اهلاً بقطر قد اثار هلالهُ فالآن فاغدُ الى المدام وبكِّر

وبالمدامة قال عنترة العبسي

ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلَم
بزجاجة صفراء ذات اسرَّة قُرنت بازهر في الشمال مفدَّم

وبالمعتقة وهي التي عتقت دهراً طويلاً ومنهُ قول ابي نواس

معتقة صاغ المزاج لرأسها اكاليل درٍّ ما لناظمها سلكُ
جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبر اصلحهُ السبك

ويمزقونها حتى تصفو ويزول عكرها ومنهُ قول العمري

يدير محياهُ على كل ناظر باقداح احداق مداماً مروَّقا

ولا نطيل الكلام في هذا المعنى لان ما ذكرناهُ منهُ كافٍ للدلالة على ما قدَّمناهُ وهو

ان العرب كانوا يعرفون انواعاً مختلفة من الانبذة وكانوا يعالجونها و يشربونها قبل الاسلام و بعده

ولما جاء الشرع الاسلامي حرّم الخمر مطلقاً وقال انها والازلام والميسر رجس من عمل الشيطان لكن العلماء اختلفوا في اطلاق تحريمها وقد اشار الى ذلك ابن الرومي حيث قال

اباح العراقيُّ النبيذ وشربهُ وقال حرامان المدامة والسكرُ
وقال الحجازيُّ الشرابان واحد فحلَّ لنا من بين قوليهما الخمرُ
سآخذ من قوليهما طرفيهما واشربها لافارق الوازر الوزرُ

وجاء في كتاب المحاضرات للراغب الاصبهاني ان الحسين بن موسى احضر ابن عياش وابن ادريس فسألهما عن النبيذ فقال ابن عياش حلال وقال ابن ادريس حرام فقال ابن عياش ادركنا ابناء الصحابة والتابعين بهذه المدة يشربونها في الولائم حلالاً كانت او حراماً و بكاؤنا على اصل الدين اشدُّ من بكائنا على النبيذ

وليس من غرضنا الخوض في هذا الموضوع وانما نقول ان تاريخ الخلفاء من بني امية و بني العباس واكثر الذين جاؤوا بعدهم يدل على ان الناس عامتهم وخاصتهم لم يرتدعوا عن المسكر . فقد جاء في المحاضرات ان الوليد كان يشرب يوماً و يدع يوماً وسليمان يشرب في كل ليلة وهشاماً يسكر في كل جمعة و يزيد بن الوليد يدمن الشرب فكان دهرهُ بين سكر وخمار وكان المنصور يشرب عشيَّة الثلاثاوات والمأمون يشرب الثلاثاء والمعتصم لا يشرب الخميس ولا الجمعة . وكان ابن المعتز لا يشرب الاَّ ليلاً و يقول الليل امتع لا يطرقك فيه خبر قاطع ولا سبب مانع والنهار ابرص لا يتم فيه سرور . وفي هذا المعنى يقول بشار

ما نام واشٍ وغاب ذو حسدٍ فاشرب هنيئاً خلا لك الجو

واكثر ابن المعتز من ذكر الشراب في اشعاره ومن قوله فيه

اشرب عقاراً كانها قبسٌ قد سبك الدهر تبرها فصفا
يبدي لنا الابريق من دمها كأنهُ راعف وما رعفا

ومنهُ

أيا عاذلي هلاَّ اشتغلتَ بلامعي كما انا مشغول بكاسٍ عن العذلِ

وكان العلماء والفضلاء ينهون عنها و يشددون الملامة على شاربها وذلك يدلُّ على تهافت الناس عليها والاَّ لم يكن الى اللوم سبيل . قيل حضر نصيب عند عبد الملك ابن مروان فدعاهُ الى الشراب فقال اني لم اصل اليك بنفسي ولا بحسن صورتي وانما قربتُ منك بعقلي فان رأى الامير ان لا يحول بيني و بينهُ فعل . وقيل للعباس ابن مرداس لو شربت النبيذ لازددت

جرأة فقال ما كنت لاصبح سيد قومي وامسي مغنيهم وادخل جوفي ما يحول بيني و بين عقلي

وقال الوليد للحجاج هل لك في الشراب فقال "لا يا امير المؤمنين وليس بحرام ما احللته ولكني امنع اهل عملي منهُ واخاف ان اخالف قول العبد الصالح وما اريد ان اخالفكم فيما انهاكم عنهُ". وسأل الخليفة المنصور ابا بكر الهذلي عن النبيذ فقال تمادت فيهِ السفهاء حتى كرهتهُ العلماء . وقال الخليفة المأمون اشرب النبيذ ما استبشعتهُ فاذا استطبتهُ قدعتهُ . ولما وقع الخلاف بين الامين والمأمون كان المأمون يخطب بخراسان بساوي الامين و يقول في مساويهِ وما ظنكم بخليفة يقتني شاعرًا ينشد بحضرتهِ جهارًا نهارًا في مجالسهِ هذا القول

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا اذا امكن الجهرُ

وقد فتحنا كتاب حلبة الكميت لشمس الدين محمد بن الحسن البواجي عند كتابة هذه السطور فاذا هو مشحون بما نحمرُّ منهُ وجنة الادب و يشذى لهُ جبين الفضل من ذلك ما روي عن حماد الراوية قال "كنت محبًّا للوليد بن عبد الملك فلما تولى اخوهُ يزيد الخلافة هربت الى الكوفة فبينا انا في المسجد الاعظم اذ اتاني رسول محمد بن يوسف الثقفي وقال اجب الامير فدخلت عليهِ فقال ورد كتاب امير المؤمنين بحملك اليهِ و بالباب نجيبان فاركب احدهما وادفع اليَّ كيسًا فيهِ الف دينار وقال هذه نفقة لمنزلك فدخلت دمشق في اليوم الثامن ودخلت عليهِ فاذا هو جالس في دار مبلطة بالرخام الاحمر وفيها سرادق خز احمر في وسطهِ قبة حمراء من خز ونرشها وكل فيها من خز احمر وعلى رأسهِ جاريتان عليهما ثياب حمر بيد كل واحدة ابريق وفي يد واحدة نبيذ احمر والاخرى نبيذ ابيض فلما واجهتهُ سلمت عليهِ بالخلافة فرد عليَّ وقال ادنُ يا حماد اتدري فيمَ بعثت اليك قلت لا قال في بيت شعر ذهب عني اولهُ فقلت من اي عروض وقافية قال لا ادري الاَّ انهُ بيت فيهِ ابريق نقلت في نفسي ان نفعتني الراوية يومًا فالآن وفكرت ساعة ثم قلت نعم يا امير المؤمنين لعلهُ في قول تبع اليماني

بكر العاذلون في وضح الصبح يقولون لي الا تستفيقُ
يلومون فيك يا ابنة عبد الله والقلب عندكم موثوقُ
لستُ ادري اذا كثر العذل فيها اعدوٌّ يلومني ام صديقُ
ثم نادوا إلى الصبوح فقامت قينة في يمينها ابريقُ

فصاح يزيد وقال هو والله الشعر بعينهِ وشرب وقال يا جارية اسقهِ فسقتني كاسًا اذهب ثلث عقلي ثم استعاد الشعر وشرب وقال اسقهِ فسقتني الكاس الثاني ولما شربت ذهب ثلث عقلي الثاني ثم استعاد مني الشعر وشرب وقال يا جارية اسقهِ فقلت قد ذهب ثلثا عقلي

يا امير المؤمنين فقال سل حاجتك قبل ان يذهب الثلث الاخر فقلت احدى الجاريتين قال هما لك وما عليهما ومائة الف درهم يحسن بها سيرك ثم ناولتني الجارية كاساً فشربتها ونهضت وقد ذهب عقلي فعدت الى دار الضيافة فانتبهت آخر الليل واذا بشمع يوقد والجاريتان ترصان الامتعة والبغال تحمل مالها من اثاث وغيره واصبحت وقد قبضت المال وانصرفت وانا ايسر اهل الكوفة "

ومثل ذلك ما حكى ابو العباس محمد بن يزيد المبرد قال " كان ابو عثمان المازني قد جاءهُ يهودي وسألهُ ان يقرئهُ كتاب سيبويه وبذل لهُ مائة دينار فامتنع ابو عثمان من ذلك قال المبرد فقلت لهُ سبحان الله ترد مائة دينار مع فاقتك وحاجتك الى درهم واحد. فقال نعم يا ابا العباس اعلم ان كتاب سيبويه يشتمل على ثلثمائة آية من كتاب الله ولا ارى ان امكن منها كافراً فسكت. قال المبرد فما مضى الاَّ ايام قليلة حتى جلس الواثق يوماً للشرب وحضر ندماؤهُ فغنت جارية في المجلس هذا الشعر وهو

أظلوم ان مصابكم رجلاً اهدى السلام تحيةً ظلمُ

فنصبت رجلاً فلحنها بعض الندماء وقال الصواب الرفع لانهُ خبر ان فقالت الجارية ما حفظتهُ من معلمي الاَّ هكذا . ثم وقع النزاع بين الجماعة فمن قائل الصواب معهُ ومن قال الصواب معها فقال الواثق من بالعراق من اهل العربيَّة ممن يرجع اليهِ قالوا بالبصرة ابو عثمان المازني وهو اليوم واحد عصرهِ في هذا العلم فقال الواثق بالله اكتبوا الى والينا بالبصرة يسيرهُ الينا معظماً مبجلاً فما كان الاَّ ايام حتى وصل الكتاب الى البصرة فامر الوالي ابا عثمان بالتوجه وسيرهُ على بغال البريد فلما دخل على الواثق رفع مجلسهُ وزاد في اكرامهِ وعرض عليهِ البيت فقال الصواب مع الجارية ولا يجوز في رجلاً غير النصب لان مصاب مصدر بمعنى الاصابة ورجلاً منصوب بهِ والمعنى ان اصابتكم رجلاً اهدى السلام تحية ظلم فظلم خبر ان ولا يتم الكلام الاَّ بهِ ففهم الواثق كلام ابي عثمان وعلم ان الحق ما قالهُ واعجب بهِ واقطع الرجل الذي كان انكر على الجارية ثم امر الواثق لابي عثمان المازني بالف دينار واتحفهُ بتحف وهدايا كثيرة لاهلهِ ووهبت لهُ الجارية جملة اخرى من المال ثم سيرهُ الى بلدهِ مكرماً فلما وصل جاءهُ المبرد يهنئهُ بالقدوم فقال لهُ ابو عثمان كيف رأيت يا ابا العباس تركت لله مائة فعوضني الفاً فقال المبرد من ترك لله شيئاً عوضهُ خيراً منهُ . ورأيت هذه الحكاية في ادب النديم لكشاجم منسوبة الى المتكل لا الى الواثق وان الراد على الجارية يعقوب بن السكيت والله اعلم "

بارك الله لمولانا المازني فان اموال الملوك المبتزة من دماء الرعية احلُّ في شرعهِ من

مئة دينار يفقدهُ اياها طالب علم رزقًا حلالاً بدل عمل حلال ربما اهتدى به ذلك الطالب

ومنهُ ان الخليفة هرون الرشيد قال للفضل بن يحيى بلغني انهُ قدم اسمعيل بن صالح وانا اريد ان اراهُ قال يا سيدي اخوهُ عبد الملك في حبسك وقد نهاهُ ان يمضي الى احد قال فاني اتعلل حتى يأتيني عائدًا فقال الفضل لاسمعيل الا تعود امير المؤمنين قال بلى فمضى به اليهِ وكان اخوهُ قد وجه اليهِ انهم انما يريدونك لتشرب معهم وتغني لهم فان فعلت فما انت اخي فلما دخل على الرشيد رفعهُ واكرمهُ وقال اني وجدت بك راحة واشتهيت الطعام فقدمت المائدة فاكلوا ووصف الطبيب انداح الشرب فقال الرشيد والله ما شربنا حتى يشرب اسمعيل فقال لهُ اتق الله يا سيدي فان عليَّ يمينًا ان لا اقبل شيئًا من ذلك فقال لا بدَّ من الشرب فشرب ثلاثة انداح وسقاهُ مثلها ثم مدت ستارة وخرج بعض الجواري يضربن وبعض يغنين فطرب الرشيد واسمعيل وتناول الرشيد عودًا ووضعهُ في حجر اسمعيل وكان في يد الرشيد سبحة فيها عشر قطع اشتراها بثلاثين الف دينار فوضع السبحة في عنق العود وقال غنِّ وكفر عن يمينك بثمن هذه السبحة فاندفع اسمعيل يغني ويقول

لعمرك ما اهويت كفي بريبة ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
واعلم اني لم تصبني مصيبة من الدهر الاَّ قد اصابت فتى قبلي

فطرب الرشيد وقال الرح يا غلام فسقد لهُ لواء على مصر قال اسمعيل فوليتها فتحين واوسقتها تدللاً وانصرفت منها بخمسمائة الف دينار

وفي ذلك كلهِ ادلة قاطعة على ان الامراء والعظماء كانوا يشربون الخمر ولا ينتهون بنهي الشرع

وتواريخ العرب مشحونة بوصف الشراب ومجالسهِ وندمائهِ ودواويتهم مملوءة بالاشعار الخمرية مما ابدع فيهِ الشعراء بوصف الخمر وآنيتها الى ما لرتكبوا فيهِ ما لا تقدم عليهِ امة مؤدبة بآداب شرع شريف كالامة العربية. ولا يختص ذلك بالمتهتكين من الشعراء كابي نواس بل هو شامل لسراة القوم كعبد الله بن جدعان وحسان بن ثابت (قبل الاسلام) وامير المؤمنين ابن المعتز وصفي الدين الحلي وابن الصباك وغيرهم

ولم تكن معاقرة الخمرة قاصرة على اهل المشرق بل شاعت عند اهل المغرب ايضًا ويظهر لنا ان هؤلاء اقبلوا عليها اكثر من اقبال اهل المشرق.

اخذنا كتاب نفح الطيب لنذكر منهُ بعض الشواهد على ما تقدم فوقع في يدنا الجزء الثاني منهُ ففتحناهُ فانفتح عند الصفحة ١٦٥ وفيها ابيات يقول ناظمها

اقدي اسباه من نديم ملازم للكؤوس راتبْ
قد عجبوا في السهاد معها وهي لعمري من العجائبْ
قالوا تجافى الرقاد عنها فقلت لا ترقد الكواكبْ

وقصة هذه الابيات على ما في نفح الطيب ان ابا عامر ابن شهيد حضر ليلة عند الحاجب ابي عامر بن المظفر بقرطبة فقامت لسقيهم وصيفة صغيرة ولم تزل تسهر في خدمتهم الى ان هم جند الليل بالانهزام وكانت تسمى اسباه فعجب الحاضرون من مكابدتها السهر طول ليلتها على صغر سنها فسألهُ المظفر وصفها فصنع هذه الابيات ارتجالاً. ويتضح من ذلك انهم كانوا يشربون الراح من المساء الى الصباح . غفر الله لهم

وفي الصفحة التالية ان الوزير ابا العلاء دخل على الامير عبد الملك بن رزين في مجلس انس وبين يديه ساقٍ يسقي خمرين بن كاسهِ ولحظهِ ويدي درين من حبابهِ ولفظهِ

وفي الصفحة التالية ان عبدالله بن عاصم صاحب الشرطة بقرطبة دخل على الامير محمد بن عبد الرحمن الاموي ملك الاندلس وبين يديهِ غلام حسن الحاسن فقال الامير يا ابن عاصم ما يصلح في يومنا هذا فقال عقار ينفد الدنان ويؤنس الغزلان فاستضحك الامير ثم امر بمراتب الغناء وآلات الصهباء

فقلبنا صفحات قليلة فاذا نحن بنونية ذي الوزارتين ابن زيدون في ولّادة بنت المستكفي الاموي وقد ابدى فيها من الوجد والحنين ما يعذرهُ عليهِ الشعراء الى ان قال

تأسى عليكِ اذا حثّت مشعشعة فينا الشمولُ وغنانا مغنينا
لا اكؤس الراح تبدي من شمائلنا سنا ارتياح ولا الاوتار تلهينا

فوقفنا عند هذا الحد ولم نزد خوف الاطالة على غير طائل ورجعنا عن كتب اللغة والادب واثقين ان الذين كانت بيوتهم عامرة بالجواري والوصائف لم يكونوا يمتنعون عن الراح وان ذوي السعة منهم كانوا يشربونها ويقولون فيها ما قالهُ عبدالله بن جدعان

شربتُ الخمر حتى قال صحبي الستَ عن السفاه بمستفيقِ
وحتى ما اوسد سيف ميت انام به سوى الترب السحيقِ
وحتى أُغلقَ الحانوت دوني وآلتُ الهوان من الصديقِ

ويصفونها لاخوانهم كما وصفها الصفي الحلي بقولهِ

خذ فرحة اللذات قبل فواتها واذا دعتك الى المدام فواتها
واذا ذكرتَ الغائبين عن الطلا لا تنسَ حسرتهم على اوقاتها

لكن جمهور العمال والمستوزنين لم يكونوا على دين ملوكهم من هذا القبيل ويقيننا ان العلماء الفضلاء كانوا يتجنبونها ولذلك لم يبلغ الناس من معاقرة الخمرة في ممالك العرب ما بلغوهُ في ممالك الروم ولا في ممالك الافرنج على ما سيجيء في الجزء التالي

النقود والثروة

قدَّرت ادارة ضرب النقود الاميركيَّة قيمة النقود التي كانت في الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وفرنسا والمانيا وروسيا وايطاليا وبلجكا وهولندا والنمسا والهند واستراليا والدنمرك واسوج ونروج سنة ١٨٧٣ والتي كانت فيها في العام الماضي اي سنة ١٨٩٦ فاذا هي على ما ترى في هذا الجدول وهي محسوبة بالجنيهات المصرية

نوع النقود	١٨٧٣	١٨٩٦
النقود الذهبيَّة	٢٤٢٠٠٠٠٠٠	٧٣٩٨٠٠٠٠٠
النقود الفضيَّة	٢١٠٨٠٠٠٠٠	٣٤٦٤٠٠٠٠٠
نقود الورق غير المغطاة	٤٦٤٤٠٠٠٠٠	٣٤٢٨٠٠٠٠٠
وعدد السكان	٣١٥٠٠٠٠٠٠	٤٢٥٠٠٠٠٠٠
فيخص النفس من الذهب	٧٦ غرشاً	١٧٤ غرشاً
" " ومن الفضة	٦٧ "	٨١ "
" " ومن الورق	١٤٧ "	٨٠ "
وجملة ما يخص النفس من النقود كلها	٢٩٠ "	٣٣٦ "

ويستفاد من ذلك ان النقود الذهبية قد تضاعفت ثلاثة اضعاف في ٢٣ سنة مع ان السكان زادوا نحو ثلاثين في المئة فقط والنقود الفضية زادت النصف والنقود الورقية قلَّت الربع وذلك كلهُ من دلائل ازدياد الثروة ورواج الاعمال . ولو كان المال موزَّعاً على الناس بالسواء او بما يقرب من السواء لغبطنا نوع الانسان ولقلنا انهُ بلغ مناهُ من الراحة والرفاهة ولكن الامر على غير ما يتمناهُ اخو الانسانية والمروَّة فان الجانب الاكبر من هذه النقود محفوظ في خزائن البنوك خاصٌّ بالاغنياء والجانب الاصغر منها موزَّع على الجمهور

وقد قابلت ادارة الضرب بين النقود التي كانت في الولايات المتحدة الاميركية والنقود